العدد ٣٩ آب/ أغسطس ٢٠١٥

السَّمْتُ الحَسَنُ
مِن سِـــيرَةِ الخَليفةِ الرَّاشِـــدِيِّ الخَامِـــسِ
الإمامِ الجَليلِ السَّيِّدِ الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عنهُما

مُحمّد ياسِر الدَّبّاغ

بسمِ اللهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ، وعلى آلِه وصحبِه وأتباعِه أجمعينَ؛ مَنْ سَمَوْا رُوحاً وفِكراً، وزَكَوْا قَلباً ونَفْساً، ونَشَرُوا طِيباً وعِطراً، وبَقَوا ذِكْراً وذُخْراً، وبَعدُ:

لا بُدَّ قبلَ الكَلامِ عنِ السَّمْتِ الحَسَنِ أن نتعرَّفَ على بعضِ معانيها فمن معانيها: الهَديُ الصَّالِحُ، وحُسْنُ الصَّمْتِ، والدَّلُّ، والإرشادُ؛ فكما كان سيِّدُنا عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أشبَهَ الصحابةِ سمْتاً برَسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وصحبِه وسلَّم؛ لِذلكَ آثرَهُ أميرُ المُؤمنينَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ على نفْسِه، وبَعثَه إلى الكوفةِ مُعلِّماً الإسلامَ، وقال قولتَه المَشهورَة: "لقد آثرْتُكُمُ بابنِ أمِّ عبْدٍ. وكذلكَ كان الحَسنُ بنُ عليٍّ أشبَهَ الناسِ خَلقاً وخُلُقاً، هدياً ودلّاً، إرشاداً وحُسنَ صَمتٍ بالنبيِّ مُحمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم؛ هذا من حيثُ العبارةُ، وأمّا من حيثُ الإشارةُ؛ فحروفها السِّينُ، والميمُ، والتّاءُ؛ أمّا السِّينُ فـ: السَّريرَةُ النُّورانيَّةُ، والسَّكينَةُ المَكينَةُ، والسَّعادَةُ الرَّزينَةُ. والميمُ فـ: المَعرفةُ العَميقةُ، والمُصابَرةُ اللائقةُ، والمُجاهَدةُ الفائقةُ. وأمّا التّاءُ فـ: التأنِّي الإداريُ، والتَّودُّدُ الإراديُّ، والتَّسامي الرِّياديُّ. ويَظهَرُ ممّا سبقَ بيانُه أنَّها بمَجموعِها تدلُّ: على بُعدِ الرؤيةِ، ودِقَّةِ التَّخطيطِ، وسُموِّ الهدفِ، وعُلوِّ الشَّأنِ، وجَمالِ الأدَبِ، وجَلالِ الغَايةِ.

إنّ السيّدَ الجليلَ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما قد أوصى بتعلُّمِ اللغةِ العربيةِ، وأكَّدَ على تعليمِها تأكيداً واضحاً مع ضرورةِ تطبيقِ القواعدِ العلميةِ في القراءةِ؛ وخاصَّةً قراءةَ الآياتِ القرآنيةِ؛ لأنّ اللغةَ العربيةَ هيَ اللغةُ التي أنزلَ اللهُ بها القرآنَ كِتابةً ولَفظاً، وخاطبَ بها شرائعَ دينِه، وفرائضَ ملَّتِه، وبها بلّغَ الرَّسولُ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رِسالَتَه الرَّبَّانيةَ، وعلّم بها سُنّتَه المُطهَّرةَ، وبها أُلِّفَتِ الكُتبُ الدِّينيةُ، والكُتبُ العلميةُ، وكُتبُ الحِكمةِ، وحَفلتْ بها المكتباتُ الإسلاميةُ والعربيةُ، قديماً وحديثاً؛ لذا لا بُدَّ للناشئِ من تعلُّمِها وإلَّا كان جاهلاً بالدِّينِ، مَنقُوصاً في العلمِ إضافةً إلى ما تنمازُ به هذه اللغةُ العربيةُ من الفَصاحةِ والبَيانِ، والطَّلاوةِ على اللسانِ، والحَلاوةِ في الإسْماعِ والآذانِ.

كما أنّ من المؤكَّدِ تمكُّنُ الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما من اللغةِ العربيةِ أنّه كان يُعَدُّ من فُصحاءِ العربِ؛ فقد قالَ الإمامُ المشهورُ عَمْرو بنُ العَلاءِ رَحِمهُ اللهُ: ما رأيتُ أفصَحَ من الحَسَنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما. هذا وقد كان له

تلاميذُ نجُباءُ منهُم: ابنهُ الحَسَنُ، والعلاءُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ، والشَّعبيُّ وغيرُهُم من الأئمةِ الأعلامِ. وممّا يدلُّ على تمكُّنه وتضلُّعه من مَعينِ القرآنِ الكريمِ، ودَوحَةِ السُّنَّةِ المُطهَّرةِ أن سألَه والدُه أميرُ المُؤمنينَ عليٌّ قائلاً: "كمْ بينَ الإيمانِ واليقينِ؟"، فقالَ الحَسنُ: "أربعُ أصابعَ". فقالَ أميرُ المُؤمنينَ عليٌّ: "وكيف؟"، فقالَ الحَسنُ: "الإيمانُ كُلُّ ما سَمِعتْهُ أُذنَاكَ وصَدَّقَهُ قَلبُكَ، واليَقينُ ما رأتْهُ عَيناكَ فأيقنَ به قلبُكَ، وليسَ بينَ العَينِ والأُذنِ إلاّ أربعُ أصابعَ" وسُئِلَ عن الصَّمْتِ فقالَ: "هو سَترُ العَينِ أو زَينُ العرضِ، وفاعِلُهُ في راحَةٍ، وجَليسُه في أمانٍ". ومن أقواله البليغَة: "حُسْنُ السُّؤالِ نِصْفُ العِلْمِ". يا إلهي! يا لها من رَوعةٍ في العبارَةِ، ودقَّةٍ في الإجابةِ مع حُسنِ الإصابَةِ التي تدلُّ على نجَابَتِه وربَّانيَّةِ تربيته؛ هذا من جانبٍ إيمانيٍّ لسانيٍّ بَيانيٍّ. وأمّا من جانبٍ آخرَ يُظهِرُ غَزارةَ علمه، ودقَّةَ فَهمه في علْمِ المَقاصِدِ، وفقهَه لأحكامِ المَصالحِ والمَفاسِدِ، ومَعرفَتهُ العَميقةَ بمقاصِدِ الشريعةِ الغرَّاءِ في تقديمِه وحدةَ الأُمَّةِ، وحفظَ الدِّماءِ على المَصلَحةِ الخاصَّةِ من مُلكِ الدُّنيا عندما تنازَلَ هذا السَّيِّدُ الجليلُ والخليفةُ الرَّاشِديُّ الإمامُ النَّبيلُ طَواعيةً لِكاتبِ الوحيِ وأمينُه وداهيةِ العَربِ مُعاويةَ بنِ أبي سفيان رضيَ اللّهُ عنهُما؛ وبذلك حَقَنَ الدِّماءَ، وجَمَعَ الشَّمْلَ، وحَقَّقَ نُبوّةَ جَدِّه المُصطفى مُحمَّدٍ صلّى اللّهُ عليه وآله وصحبه وسلّمَ. إن تدبر لقول الله تبارك وتعالى: "أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" يظهر جمال وجلال وروعة الفجر؛ لذا كان السَّيِّدُ الحَسنُ بنُ عليٍّ إذا صلّى الغَداةَ في مَسجدِ رَسولِ اللّهِ يَجلسُ في مُصلَّاهُ حتّى ترتفعَ الشمسُ، ويَجلسُ مَن يجلسُ من سادات العَربِ والناسِ، ثمَّ يقومُ فيدخلَ على أمَّهاتِ المُؤمنينَ الطَّاهراتِ العَفيفاتِ فيسلِّمُ عليهنَّ،وربما أتْحفنَهُ- ضيافَة- ثمَّ ينصَرِفُ إلى مَنزله. إنّها حياةُ الأنْقياءِ الأتْقياءِ الأخْفياءِ السُّعداءِ الذينَ تُصلِّي عليهِمُ الملائكةُ الذين يجلسونَ بعدَ أداءِ الصلاةِ في مُصلَّاهُم. إنّ الحَسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللّهُ عنهُما يُعلِّمُنا أهميةَ الذِّكْرِ في البُكورِ، ويُرغِّبُنا في تَركِ النومِ في ذلكَ الوقتِ- من خلالِ تعاليمِ القرآنِ الكريمِ الرَّبَّانيَّةِ، وسُنَنِ النّبيِّ مُحمَّدٍ النُّورانيَّةِ- التي فَقِهَها علْماً وعملاً وسُلوكاً ربَّانيّاً فَريداً. ولقد تحدّثَ صاحبُ السِّحرِ الحلالِ والقلمِ السَّيَّالِ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللّهُ عن أهميةِ الذِّكْرِ في البُكورِ فقال: ومن المَكروهِ عندهُم – الآلِ والصحبِ وأكابرِ السَّلفِ الصالحِ – النومُ بعدَ صلاةِ الصُّبْحِ وطُلوعِ الشمسِ؛ فإنَّه وقتُ غنيمةٍ،وللسَّيرِ في ذلكَ الوقتِ عند السالكينَ مَزيَّةٌ عظيمةٌ حتّى لو سارُوا طُولَ ليلِهم لم يسمَحُوا بالقُعودِ ذلكَ الوقتِ حتّى تطلُعَ الشمسُ؛ فإنَّه أوَّلُ النهارِ ومِفتاحُه، ووقتُ نُزولِ الأرزاقِ (علماً وعَملاً، وهِباً وكَسْباً، سَعادةً وهَناءً)، وحُصولِ القِسَمِ، وحُلولِ البَركَةِ، ومنهُ ينشأُ النهارُ، وينسحبُ حُكمُ جميعِه على تلكَ الحِصَّةِ فيجبُ أن يكونَ نومُها كنومِ المُضطرِ (كمَرضٍ ووردياتِ الحراسةِ والطَّبابَةِ والإطفاءِ..) وغيرِه. ولشَرَفِ هذا الوقتِ النفيسِ ولأهميَّتِه العظيمَةِ في السَّيرِ إلى اللّهِ تباركَ وتعالى نَجِدُ الترغيبَ الشديدَ في إحيائِه بالذِّكْرِ فعَن أنسٍ رضيَ اللّهُ عنه قالَ قال رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "مَن صلَّى الفَجْرَ في جَماعةٍ ثمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللّهَ حتّى تطلُعَ الشمسُ ثمَّ صلَّى رَكعَتَينِ؛ كانتْ كأجْرِ حَجَّةٍ وعُمْرَةٍ تامَّةٍ تامَّةٍ تامَّةٍ". قال ابنُ رجَبٍ رحِمَهُ اللّهُ تعليقاً على هذا الحديثِ الشريفِ: "لَمّا كانَ الحجُّ من أفضلِ الأعمالِ والنفوسُ تتُوقُ (تتشوَّفُ

وتشْتاقُ) إليه؛ لِما وضَعَ اللهُ في القلوبِ من الحَنينِ إلى ذلكَ البيتِ المُعظَّمِ، وكان كثيرٌ من الناسِ يَعجَزُ عن ذلكَ– ولا سيَّما كُلَّ عامٍ شرَعَ اللهُ لعبادِه أعمالاً يبلغُ أجرُها أجرَ الحجِّ فيتعوَّضَ بذلكَ العاجزونَ في ذلكَ التَّطوُّعِ " . فيَا مَن تُفرِّطُ في هذه العَطايا وتلكَ المِنَحِ، وتشكُو قِلَّةَ الزَّادِ وسُوءَ المَعادِ على ربِّ العبادِ؛ ارتكبْتَ الجُرمَ، وقتلْتَ الوقتَ فيما يَضرُّ العقلَ، والجسمَ، والرُّوحَ؛ كـ(الدُّخانِ، والنَّارجيلةِ– نارٌ بدايتُها وسِلٌّ نهايتُها– ولعبِ الوَرقِ، والقمارِ، والنَّردِ، والمُخدِّرات . . .) وقضَيتَ نهارَكَ تَعباً مَكدُوداً، ولَيلَكَ مُسرِفاً مَتعوساً؛ لقد ارتكبتَ الجُرمَ، وفاتَكَ الغُنمُ. ويا مَن أبدلَ الليلَ الذي جعلَه اللهُ سكناً فصَيَّرتَه رِكْساً ونَكْساً، ويا مَن غيَّرَ النهارَ الذي جعلَه اللهُ مَعاشاً فحَوَّلْتَه ظَلاماً وظُلماً؛ تُبْ إلى اللهِ تعالى، وغيِّرْ سُلوكَكَ؛ ليحفَظَكَ ربُّكَ ومَليكُكَ. ويا مَن بَدَّدَ الوقتَ فجعلَه مَقتاً، وضيَّعَ الحياةَ وصيَّرها مَوتاً بَدَلَ أن تُحيِيَ قلبَكَ بالشُّكْرِ، وعقلَكَ بالفِكْرِ، ولسانَكَ بالذِّكْرِ؛ أمَتَّ قلبَكَ، وأفسَدتَ عقلَكَ، ولوَّثْتَ لِسانَكَ، وأهنْتَ نفسَكَ، وأوهَنتَ جسمَكَ، وأفْقرتَ جَيبَكَ، وكدَّرتَ حياتَكَ، وأزعجتَ غيرَكَ، ونغَّصتَ مَن حولَكَ،ودنَّستَ بيئتَكَ، وأرضَيتَ شيطانَكَ، وأغضبتَ خالقَكَ، ولو شاءَ لخنقكَ بدُخانِكَ، وأحرَقكَ بنَرجيلتِكَ، وأماتَكَ في سَكرَتِكَ وغفلتِكَ؛ فَهنتَ على ربِّكَ جلَّ وعلا، وفاتتكَ الغنائمُ فحلّ بكَ المَقتُ وكما قيلَ: "من علاماتِ المَقتِ تضييعُ الوقتِ" . انظرْ أُخيَّ وتأمَّلْ– حفظَكَ اللهُ ورَعاكَ– ما أجملَ أنْ يغتنمَ الإنسانُ المسلمُ وقتَه النفيسَ، ويُحافظَ على أوقاتِ الآخرينَ؛ ولا سيّما أوقاتَ البركةِ والنفحاتِ الربانيةِ؛ حيث النشاطُ والطاقةُ، والإشراقُ والإلهامُ، والحركةُ، والحيويةُ؛ ليجدَ النشاطَ والصفاءَ والسكينةَ والطُّمأنينةَ والأمانَ. وما أروعَ أن يسمُوَ الإنسانُ برُوحِه الطَّهورِ إلى الملأِ الأعلى لِينالَ الزُّلفى، ويظفرَ بخيرِ الدُّنيا وفلاحِ الآخرةِ وليُكتَبَ في ديوانِ الذَّاكرينَ العالمينَ العاملينَ الرَّبَّانيينَ الآمنينَ. وهذا فاروقُ الإسلامِ عُمَرُ يدعو قائلاً: "اللهُمَّ إنَّا نَسألُكَ إصلاحَ الساعاتِ، والبركةَ في الأوقاتِ" .

لقد كان من كمالِ هدي النَّبيِّ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلَّم هذا الهديُ الرَّبَّانيُّ الفريدُ، وتعلَّمَهُ منه آلهُ الأطهارُ وصحبُه الأبرارُ، وطبَّقُوه علماً وعَملاً، سُلوكاً وأخلاقاً، ومنهُم الخليفةُ الرَّاشديُّ الخامسُ السَّيِّدُ الإمامُ الجليلُ الحسَنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما؛ حيث التزمَ بالأذكارِ والأورادِ والأدعيةِ ووعَاها بأُذنٍ واعيةٍ، وقلبٍ مُطمَئنٍ بالإيمانِ، وكان يحثُّ الناسَ على الصلواتِ في المساجدِ ويقولُ: " مَن أدمنَ الاختلافَ إلى المساجدِ رزقَهُ اللهُ إحدى خصالٍ: " أخاً مُستفاداً، ورَحمةً مُستَتَرَةً لهُ، أو عِلْماً مُستَطرَفاً، أو كَلِمةً تدلُّ على هُدىً، أو يترُكُ الذُّنوبَ خشيةً أو حَياءً" . كما أنَّنا نتعلَّم من سيرةِ السَّيِّدِ الحَسَنِ أهميَّةَ السِّياحةِ في الإسلامِ؛ ومنها السياحةُ إلى بيتِ اللهِ المُعظَّمِ كلَّما سمحَتْ ظروفُنا، وتيسَّرتْ أحوالُنا؛ فقد قال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم: " تابِعُوا بينَ الحجِّ والعُمرَةِ؛ فإنّ مُتابَعةً بينهُما تنفِي الفقرَ والذُّنوبَ كما ينفِي الكيرُ خَبَثَ الحَديدِ "هذا مَلمَحٌ اقتِصَاديٌّ سياحيٌّ ربَّانيٌّ رائعٌ يُطهِّرُ النفْسَ من أكدارِها، ويسمُو بالرُّوحِ إلى مَعارجِ مَلكُوتِها؛ لِتتَّصلَ بربِّها وخالقِها، وتتعرَّفَ البشريةُ إلى بعضِها فتعرِفَ طريقَ وحدتِها وعِزَّتِها وكرامتِها؛ ولذا نرى الإمامَ الحَسنَ وقد حجَّ ماشياً ونجَائبُه (الإبلُ الفتيَّةُ القويَّةُ) تُقادُ إلى جانبِه

خمْساً وعشرينَ مرَّةً– كما في بعضِ الرِّواياتِ– وقالَ: " إني أستَحيي مِن ربِّي أنْ ألقَاهُ ولمْ أمشِ إلى بَيتِه" . فَللَّهِ دَرُّهُ مِن رَجُلٍ ربَّانيٍّ، وإمامٍ جليلٍ، وسيِّدٍ نبيلٍ، وخليفةٍ راشديٍّ خامسٍ أصيلٍ؛ التزمَ حُسنَ الصَّمْتَ فنَالَ الهَديَ والسَّمْتَ، ونطقَ بالحقِّ للحقِّ فازدانَ ونجَا، وتأدَّبَ بأدبِ النُّبوَّةِ فنَالَ أعلى الرُّتَبِ ولِمَ لا واللّهُ تعالى يقولُ: "ذرِّيَّةً بَعضُها مِنْ بَعضٍ" فَرَضِيَ اللّهُ عن آلِ رسولِ اللّهِ الأطهارِ وصحبِه الأبرار ما تعاقبَ الليلُ والنهارُ، وعلينا مَعهُم برحمَتِكَ يا عزيزُ يا رحيمُ ويا غفَّارُ.